إسهام المعتقدات والديانات في ترسيخ قيم حقوق الإنسان

-الدكتور عبد الهادي بوطالب-

(1) تمهيد

إسهامات الأفكار المثالية، والنظريات الخلقية، والمعتقدات البشرية، والأديان السماوية في ترسيخ قيم حقوق الإنسان قديمة قدم حركة الفكر الإنساني لإصلاح أوضاع الإنسان وتقويمها، وقدم المعتقدات البشرية الضاربة في عمق التاريخ، وقدم الديانات الموحِّدة التي نزل بها الوحي لتخليق الإنسان قصد تأهيله لممارسة خلافة الله في الأرض.

وقد جعلت مجموعة من هذه النظريات والمعتقدات من تخليق الإنسان محور أفكارها وتوجهاتها، كما جعلت منه الديانات الإبراهيمية الثلاث محور رسالتها التي جاء بها الرسل فيما أُنزِل إليهم من الكتب. وتميزت الرسالات السماوية بالاضطلاع بتأهيل الإنسان ليحيا حياتين طيبتين في عالمي الشهادة والغيب، في دار الدنيا الفانية، ودار الخلد الباقية. وحددت حقوقه في الدنيا بجانب ما منحه الله له من حقوق في الآخرة.

ولا تستقيم الحياة في رحلة عمر الإنسان فوق الأرض إلا إذا كانت له حقوق تصون كرامته وتوفر له الشروط الموضوعية لإدارة الأرض التي استخلفه الله عليها بما يضمن حسن إعمارها وتدبير شؤونها، إذ بتمتعه وممارسته لحقوقه يصبح صالحا مؤهَّلا للقيام بالأمانة التي عهد الله بها إليه. وقد جاء في القرآن: "أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" (سورة الأنبياء 21 الاية 105) أي المؤهَّلون لعمارتها ورعايتها.

لكن ما ورد عن حقوق الإنسان في هذه المؤسسات سواء منها البشرية أو الإلهية اختلف مستوى الاهتمام به فيها بين نظرية

وأخرى، وبين معتقد ومعتقد، وبين دين ودين. فمن بينها ما اكتفى بمقاربة هذه الحقوق عن بُعد في ومضة خاطفة. ومن بينها ما اكتفى بتمجيد أسسها الخيّرة كالإشادة بالعدل والمساواة والتراحم بين البشر. وكان من بينها أخرى فصلتها تفصيلا دقيقا وطبقتها في المجتمعات التي أقامتها. وبعض الديانات أسست هذه الحقوق في نصوصها التأسيسية التي جاءت بها رسلها في كتبها المنزلة، لكن فقه الفكر البشري واجتهادات علماء الدين في فهم النصوص أفرغت أحيانا هذه النصوص من محتواها عندما جردتها من صفة التعميم والمساواة وقصرتها إما على من ينتمون إلى عرق دون آخر، أو دين دون غيره، أو على نوع واحد من الجنس البشري : نوع الرجل على حساب نوع المرأة.

وفي أغلبية المؤسسات المشار إليها لم تُحصَر حقوق الإنسان في جرد جامع، وعُني بعضها بنوع من الحقوق دون أخرى. كما لم تُرتَّب هذه الحقوق في أولويات أو تُصنَّف بين حقوق أساسية وأخرى فرعية، ولم يُشَرَّع لها في بعض المؤسسات ضمانات كفيلة بصيانتها وعدم المس بها، لكن بعض الديانات كالإسلام حددت لهذه الحقوق ضماناتها عندما جعلت من هذه الحقوق حقوق البشر وفي الوقت نفسه حقوق الله على عباده -فالمس بها مس بالله وتمرد على طاعته- وعندما رتبت على الإخلال بها عقوبات جزائية في الدنيا بجانب عقاب الآخرة. وسنرى كل ذلك عندما نعرض لحقوق الإنسان في الديانات الإبراهيمية الثلاث.

(2) حقوق الإنسان في النظريات والمعتقدات القديمة

كانت لعدد من الحضارات الشرقية القديمة توجهات فكرية نحو حقوق الإنسان ممتزجة بتعاليم معتقداتها، مثل الحضارات الصينية (الكونفوسيوشية) والفارسية (الزرادشية) والهندية من هندوسية (ويطلق عليها اسم سانتاندرا أي الديانة القديمة الأزلية) وبوذية. وهذه الأخيرة ظهرت قبيل ألفي سنة على الأقل عند أكثرية

المؤرخين، وإن كان بعضهم أكد وجودها قبل هذا التاريخ على حسب الاختلاف في تاريخ ميلاد ووفاة بوذا والاختلاف حول أول بوذا ظهر في شمال الهند.

في الصين اشتهرت حكمة كونفوشيوس بتمجيد قيم العدل والإخاء والأمن والسلام بين البشر وعبر المعمور من الأرض. وقد ورد ذلك في مقولته المشهورة :

"إذا ساد بين العالم التماثل بدلا من التعالي والتعاظم أصبح العالم كله ساحة واحدة يختار فيها ذوو المواهب والفضل والكفاءة الذين يعملون جميعا على نشر السلم والوئام بينهم. وحين يرى الناس أن آباءهم ليسوا فقط هم الذين ولدوهم، وأن أولادهم ليسوا فقط هم من وُلدوا لهم، بل يذهبون إلى أكثر من ذلك فيهيؤون سبل العيش للمُسنِّين إلى أن يُتوفّوا، ويوفرون العمل للكهول، ووسائل النماء للصغار، ويكفلون العيش الكريم للأرامل من الرجال والنساء واليتامى والعاقرين الذي لا أولاد لهم، ومن أقعدهم المرض عن العمل. آنذاك يكون لكل إنسان حقه، وتكون حقوق الإنسان موفورة، وتحُترم شخصية المرأة فلا يعتدي أيٌّ عليها. وبذلك كله ينتج الناس الثروة".

إنه برنامج حافل عن حقوق الإنسان يربط لأول مرة بين حقوق الإنسان وبين مقتضيات التنمية والرفاهية والرخاء بالإضافة إلى الدعوة إلى الوئام العالمي وإحقاق الحقوق البشرية الاجتماعية، وتحديد اختيار الحاكم بتوفره على شروط الكفاءة والاستقامة والفضيلة.

ومن مرتكزات الحكمة الكونفوسيوشية تنظيرها للإنسان المثالي الذي سماه كونفوشيوس "السيد المحترم" وعرَّفه بأنه "ليس هو الشخص الذي يولد نبيلا لانتماء أسرته إلى الأشراف، ولكنه

الكريم خلقا، الصادق في عبادته، الذي يحترم نفسه ويحترم غيره ويتقيد بقواعد في سلوكه وتعامله".

وقد حفلت حكمته بقواعد سلوكية كان يختصرها في مقولات مقتضبة وضع على رأسها ما سماه "القاعدة الذهبية" التي أجملها في هذه المقولة : "لا تعامل الآخرين بما لا ترغب في التعامل به مع نفسك". وكان يرى أن جدوى سلوك الحكام الفاضل أقوى من جدوى القوانين والعقوبات". ومعه التقت الحكمة العربية الإسلامية القائلة : "إن الله ليزع بالقرآن ما لا يزع بالسلطان".

وقد أُثريت الحكمة الكونفوشية بعد وفاة حكيمها الأكبر بما اقتبسه حكماء صينيون آخرون منها وأضافوا إليها. ومنهم منسيوس الذي أقر حق الثورة على الحاكم إذا لم يطبق العدل والمساواة، ومنع على الحاكم أن يسخر المحكومين لخدمته، أو يُثقل كاهلهم بالضرائب. وقال إن هذا النوع من الحاكمين تجب مقاومته وخلعه.

أما التعاليم الهندوسية بخصوص الحقوق الإنسانية فقد استُمِدت من النصوص الدينية المنسوبة إلى أقوال الإله الهندوسي براهمان، وتأثرت بمذهبه في التفريق بين الإنسان على حسب خَلْقه ومنشأه، فاصطبغت بالطبقية أو التمييز الطبقي. وجاءت تعطي لكل طبقة حقوقا تنفرد بها. وكان يقول إن الطبقات تتفاوت بينها على حساب خلق بعضها من فمه وهي الطبقة الأولى، تليها التي خُلقت من ذراعه فالتي خُلقت من رجله.

ومن هنا لم تكن حقوق الإنسان بينها متساوية، بل فقط حقوق إنسان كل طبقة هي التي كانت تتسم بالمساواة. ونذكرها لإثارة الانتباه إلى مساهمة الهندوسية في تشريع الحقوق الطبقية وليس الحقوق الإنسانية، علما بأن آخر طبقة في الترتيب المجتمعي

الهندوسي هي طبقة المنبوذين. وهذه بكل بساطة لم يكن لها أي حق في أن تكون لها حقوق. وهي مصنفة خارج طبقات المجتمع.

على العكس من الهندوسية ظهرت البوذية كحركة إصلاح أو ثورة على نظام الطبقات الذي جاءت به الهندوسية. وقد ركزت تعاليم بوذا على قيم العدل والمساواة. ومما جاء عنها قوله : "لا فرق بين جسم الأمير وجسم المتسول الفقير ولا بين روحَيْهما. فكل منها أهلٌ لإدراك الحقيقة والانتفاع بها في تخليص نفسه. بل يذهب البوذيون في المساواة إلى حد القول إن أحقر الديدان يتساوى مع الآدميين في الاحترام والتعاطف". وجاء في تعاليم بوذا قوله : "إن براهما (إله الهندوسيين) كان يصنف الناس طوائف على حسب منشأ خلقهم. ولكن هذا غير صحيح. فالناس خُلقوا من خلق واحد، وليس بينهم فريق محكوم عليه أن يكون صالحا وآخر محكوم عليه أن يكون شريرا. فالصالحون صالحون والشريرون شريرون، ولا تأثير عليهم من الأسرة التي يولدون فيها".

وقد أنصفت البوذية المرأة خلافا للهندوسية. فقد جاء في قصة بوذا : أن أمه الملكة باجاباتي سألته قائلة : "إن البراهمية (التي سبقت البوذية) لا تسمح للنساء بممارسة الأعمال الدينية والمشاركة فيها وأنت تقول إن تعاليمك موجهة إلى جميع الطبقات والطوائف، فهل هي موجهة للنساء كما هي موجهة للرجال ؟" فأجابها : "هي موجهة على السواء للرجال والنساء". فقالت أمه : "يجب إذن أن يكون لنا راهبات أخوات كما لنا رهبان" فقال بوذا : "هو ذلك".

ويذكر أن لبوذا وصايا عشرا وتعاليم خمسة. ومن بينها تحريم القتل، والكف عن إيذاء كل حي إنسانا أو حيوانا أو نباتا، وقول الحقيقة.

وفي منطقة فارس كانت الزرادشتية أبرز المعتقدات والنظريات التي عرفتها منطقة الهند ثم انحصرت في غربه. وهي معتقد جاء به الحكيم الفارسي "زرادشت" الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد وقام على ثنائية الخير والشر وصراعهما وعلى مكافحة الشر والاعتقاد بأن الخير يتغلب في النهاية على الشر. وكان زرادشت يرى أن الشر متمثل في الجهل والفقر والظلم والبغضاء. كما كان يقول إن التعلم والعلم جزء من الدين ويرتب المتعلم والعالم في قمة طبقات المجتمع. كما دعا إلى إقامة مجتمع العدل والإنصاف.

وعرفت بابل شموخ مملكتها في عهد الملك حمورابي مؤسس الأمبراطورية البابلية القديمة (الذي توفي سنة 1750 ق.م) والذي تميز بسن قوانين وتشريعات عُرفت باسم شريعة حمورابي. وتعتبر أول مدونة للقانون الجنائي المناهض لشريعة الغاب، كما جاءت قوانينه بتخليق الحكم وصبغه بالعدل، وإبعاد حكم الاستبداد والطغيان والمزاج منه. وكفلت هذه التشريعات حقوقا للمرأة فخولتها الحق في الطلاق. وكان قبلها مخولا للرجال فقط. وفرضت للمطلقة النفقة. وقيل عن هذا العهد إنه كان عهد إنصاف حقوق المرأة التي أخذت في المجتمع مكانتها بممارستها حقوقها المدنية. ومنها حق التجارة.

ولنختم الحديث عن إسهام المعتقدات والحضارات القديمة في تأصيل قواعد الأخلاق وقيم الخير التي هي أسس حقوق الإنسان بما جاء عن الحضارة الفرعونية المصرية من أن الإله "راع" إله الشمس حكم أهل مصر بقانون قال إنه جاء به من السماء أطلق عليه اسم "ماعت" وهو يقوم على العدل بين الناس وإحقاق الحقوق. كما أن ثورة أخناتون دعت إلى السلام والتسامح والرحمة. وقد جاء في أحد النقوش الفرعونية قول أخناتون :

"إن الإله الواحد لا يتشخص في الحرب وانتصاراتها، ولكن يتمثل في الزهور والأشجار. وإن مساواة الناس في شؤونهم الدنيوية مثل تساويهم أمام خالقهم. والإنسان لا يحيى إلا في رحاب الحق والعدل".

(3) إسهام الديانات الإبراهيمية الموحِّدة الثلاث في ترسيخ حقوق الإنسان

تلتقي الديانات الإبراهيمية الموحِّدة الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام على رسالة تحرير الفرد والمجتمع من العبودية بتحريرهما من الجهل وصونهما من الظلم، وعلى تكليف الله الإنسان بمهمة استخلافه على الأرض لإعمارها وإصلاحها، أي أن للإنسان رسالة بعث الله لترسيخها في الأذهان والضمائر والقلوب رسله الثلاثة لتربيته على الاضطلاع بها وتأهيله للقيام بها وربط تمتعه بحقوقه بحسن استعمالها فيما يرضي الله والعباد.

بيد أن هذه الديانات تفاوتت في تحديد مضامين الحقوق الإنسانية وتفصيل أحكامها. فما جاء عن ذلك في اليهودية أقل مما جاء في المسيحية. وما جاءت به هذه أقل مما حفل به الإسلام من تفاصيل ودقائق. وقد يُردّ ذلك إلى وتيرة تطور الإنسان التي تسارعت من عهد موسى إلى عهد محمد مرورا بعهد عيسى عليهم السلام.

-أ- الديانة اليهودية

إن تاريخ رسالة موسى وما أوحى الله به إليه من قيم خيِّرة دعا إليها قومه وصرخ بها في وجه فرعون طاغية مصر وإلاهها هي ملحمة تحرير للفرد والجماعة وإحقاق للحقوق الإنسانية.

نقرأ في سفر الخروج من الكتاب المقدس هذه المقدمة التي يخاطب الله فيها موسى بقوله : "أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من مصر من أرض العبودية" (2/20). ويتحدث هذا السفر عن

تفاصيل اضطهاد بني إسرائيل (أو بني يعقوب) بمصر التي لجأوا إليها بعد مجاعة حلّت بأرض كنعان فخاف فرعونُ مِصرَ منهم فاستعبدهم وضيق الخِناق عليهم. فأراد الله أن يخلصهم من طغيانه فاختار موسى نبيا ورسولا لقيادتهم وتأهيلهم للتخلص من القهر والاستعباد وتمتيعهم بالحرية. فرسالة موسى بهذا جاءت لإحقاق الحقوق الإنسانية التي داسها الطغيان الفرعوني.

ثم يزيد سفر التكوين "وفي جبل سيناء كلم الله موسى وارتبط معه بعهد وميثاق أن ينصره على فرعون ويؤيده في معركته مع طغيانه، وأن يهلك فرعون وقومه". ثم يذكر سفر التكوين ما كان يعانيه بنو إسرائيل من فرعون من استعباد وتسخير وإرهاق وحمل الأثقال والقيام بالأعمال الشاقة لإكراههم على أن يبنوا له مدينتي فيتوم ورمسيس (التي حملت اسمه). (والمدينتان تقعان في القسم الشمالي الشرقي من دلتا النيل).

ويزيد سفر الكوين. "وكان فرعون يخشى من تكاثر نسل بني إسرائيل ويتوجس خيفة أن يولد منهم من يحل مكانه على عرش مصر، فأمر بقتل كل مولود ذكر يولد، وأبقى على الإناث ونادى في قومه أن اطرحوا في النيل كل ذكر يولد لبني إسرائيل، وأبقى على كل أنثى".

إن قصص هذه الملحمة التي قامت بين موسى وأتباعه من جهة وبين فرعون وقومه من جهة أخرى وما انتهت إليه من تحرير بني إسرائيل من قبضة فرعون الذي أدركه الغرق جاءت مفصلة في القرآن الذي يعتبر أكبر مصدر تاريخي لحياة الرسل والأنبياء ورسالاتهم الموحى بها إليهم. وتشابهت فيها آيات أسفار العهد القديم مع آيات القرآن الكريم إذ يقول القرآن: "إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يُذبِّح أبناءهم

ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين" (سورة القصص 28 الآية 4).

وجاء في سفر التكوين : "وقال الله لموسى : "أنا الرب سمعت أنين بني إسرائيل الذي استعبدهم المصريون فذكرت عهدي لهم. فقل لبني إسرائيل : أنا الرب أنجيكم من نير المصريين، وأنقذكم من عبوديتهم، وأرفع ذراعي وأنزل بهم أحكاما رهيبة. سأدخلكم الأرض التي رفعت يدي وحلفت أن أعطيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأعطيها لكم ميراثا". (7-8-9). وعن ذلك جاء في القرآن : "ونريد أن نَمُنّ على الذين استُضعِفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونُرِي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون" (القصص 28 الآيتان 4 و 5).

انطلقت التشريعات اليهودية من صحف موسى التي سماها الله بهذا الاسم في القرآن : "إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى" (سورة الأعلى 87 الآية 18) ومن الألواح التي جاء ذكرها في سفر التثنية (22) : "هذه هي الوصايا التي كلم الله بها وكتبها على لوحي الجبل وسلمها إلي" وتحدث عنها القرآن في عدد من السور والآيات ومنها ما جاء في سورة الأعراف 7 الآية 145 : "وكتبنا له في الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ". وفي الأعراف أيضا الآية 154 : "ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يَرهَبون".

والوصايا المشار إليها هي الوصايا العشر التي كلم الله بها موسى وهي تتضمن احترام بعض حقوق الإنسان كحقه في الحياة الذي جاء في صيغة النهي عن القتل : "لا تقتل"، وحق صون الملكية الذي جاء في صيغة النهي عن المس به: "لا تسرق"، وفي صيغة "لا تشته بيت أحد ولا حقله ولا عبده ولا أَمَته ولا ثوره ولا

حماره ولا شيئا مما لسواك"، وفي النهي عن الكذب الذي قد يُرتكَب لإنكار حق الغير وإضاعته أو لإسناد ظلم. وقد جاء من بين الوصايا أيضا : "لا تشهد على أحد شهادة زور" (سفر التثنية 18 وما بعد إلى 21).

إلا أن بعض ما جاء في الوصايا العشر عن حقوق الإنسان في المطلق كما ذكرنا جاءت بعده نصوص في التلمود أخَلَّت بإطلاقه وجعلت النص الأول منحبسا في قيود أفرغته من محتواه، مثل الحق في الحياة الذي أصبح في التلمود لا ينطبق إلا على أرواح اليهود الذين يجعلهم نص التلمود من النوع الذي لا يُقتل مقابل غيرهم الذين لا يطبق عليهم النهي عن القتل.

واضطربت النصوص التشريعية اليهودية فيما بينها تجاه حقوق إنسانية أخرى فقيد بعضها حق حرية الاعتقاد بما يجعل ممارستها غير واردة بالنسبة لليهود. فقد حرم التلمود عليهم خروجهم عن دينهم وعاقب عليه بالقتل. وهذه النصوص تبعث على الشك في أنها نصوص للتشريع اليهودي السماوي لتنافيها مع نصوص تؤكد كلها أن اليهودية دين رحمة ومساواة. وهو ما شهد به القرآن لها عندما تحدث عن محمد الذي جاء بعد موسى وقال عنهما : "ومن قبله (أي محمد) كتاب موسى إماما ورحمة". (سورة الأحقاف 46 الآية 112). وهي شهادة لموسى بأنه قدوة ولدينه بأنه رحمة. والتعاليم التي وردت في بعض النصوص التشريعية تتسم بالقسوة حيال غير اليهود، ولذلك تبقى قابلة للتساؤل عن صحتها.

-ب- <u>الديانة المسيحية</u>

يذكر القرآن ما تحدث به المسيح عليه السلام وهو في المهد عن نفسه والدين الذي جاء به فيقول : "قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيئا وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة

والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا". (سورة مريم 19 الآية 30) محددا بذلك بُعْد رسالته المتمثل في تحرير قومه من حكم الطغيان بنفيه عن نفسه أن يكون جبارا شقيا.

وفي بداية المسيحية استُشْهِد المسيحيون من أجل رفضهم تأليه الأمبراطور الروماني كما رفض بنو إسرائيل على عهد موسى تأليه فرعون بمصر وعُذِّبوا. ويدخل في رفض ألوهية الحاكم رفض كل ما يصدر عنه مما يخالف الحقوق الإنسانية التي يدوسها عادة بقوته حكم الطغيان والجبروت. لذا فالمسيحية من هذا المنطلق ديانة تحرير للبشر وإعادة الاعتبار إلى حقوقه. وقد جاء في الأناجيل تفصيل لحقوق الإنسان وواجباته. وهي تنطلق مما اشتهرت به رسالة المسيح من كونها دين محبة وعدل وإحسان. وعن هذه القيم الثلاثة تتفرع جملة من حقوق الإنسان. وفي البداية طبقت المسيحية شريعة التوارة بما فيها الوصايا العشر. وأضافت إليها وطعمتها بمبادئ المسيحية الجديدة. لقد كانت شريعة موسى تنهى عن القتل، أما المسيح فقال : "لقد سمعتم من قبلُ أنه قيل للأولين لا تقتل فإن كل من قتل يستوجب الدينونة (أي جزاء الله) أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه وإن لم يَقتلْ استحق الدينونة (إنجيل مَتَّى 21/5).

واكتفت اليهودية بالحض على إقامة العدل بين الناس. أما المسيح فقال: "إن العدل وحده يحجر القلوب إذا لم تصاحبه دفقة من محبة". (إنجيل لوقا 19/16) وكانت معجزات عيسى تطبعها قيم المساواة والمواساة ونشر العدل وإقامة المحبة والتراحم بين الأفراد والجماعات. كما طفحت تعاليمه وخطبه (ومنها خطبة الجَمَل) بنشر هذه القيم والدعوة إلى إقامة المجتمع المسيحي على ركائزها. وقد طبع الانفتاح تعاليمه كمقولته المشهورة عن عبادة السبت "إن السبت ليس سيد الإنسان. إن الإنسان هو سيد

السبت. (إنجيل متّى 12-1-8) كما طبع التسامح تعاليمه إذ جاء في مقولته : "أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مُبغِضِكم، وباركوا لاعنيكم وصلوا واستغفروا للمسيئين إليكم. ومن ضربك على خدك فحول له الآخر. ومن أخذ رداءك فلا تمنع عنه ثوبك، ومن طلب منك شيئا فأعطه، ومن أخذ ما هو لك فلا تطالبه به. وعاملوا الناس مثلما تريدون أن يعاملوكم. إن أحببتم من يحبونكم فأي فضل لكم ؟ لأن الخاطئين أنفسهم يحبون من يحبونهم. وإن أحسنتم إلى المحسنين إليكم فأي فضل لكم ؟ لأن الخاطئين أنفسهم يفعلون هذا. وإن أقرضتم من ترجون أن تسترِدّوا منهم قرضكم فأي فضل لكم ؟ لأن الخاطئين أنفسهم يقرضون الخاطئين ليستردوا قرضهم، ولكن أحبوا أعداءكم. أحبوا وأقرضوا غير راجين شيئا ليكون أجركم عظيما وتكونوا أبناء الله العلي، لأنه يُنعِم على ناكري الجميل والأشرار. كونوا رحماء كما أن الله أباكم رحيم. (إنجيل مَتّى 38/5 وما بعدها) ويدخل ضمن هذه القيم التي تتفرع عنها جملة من الحقوق الإنسانية تأويل المسيح لحكم الرجم للزانية (حفاظا على حقها في الحياة) التي جاء بها إليه معلمو الشريعة والفرّيسيون (وهم شعبة متطرفة مغالية في تطبيق الأحكام) بعد أن ضبطوها ملتبسة بالزنا فعرضوها عليه وسألوه : "لقد أوصى موسى في شريعته برجم أمثالها فماذا تقول أنت ؟" فانحنى يسوع يكتب بأصبعه في الأرض، فلما ألحوا عليه في السؤال رفع رأسه وقال لهم : "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر. ولما خرجوا جميعهم من عنده التفت إلى المرأة قائلا : "أنا لا أحكم عليك. اذهبي ولا تُخطئي بعد الآن" (إنجيل يوحنا 7).

وعندما نسرح بتفكيرينا عبر صفحات الأناجيل تطالعنا تعاليم المسيح عليه السلام برؤيته الواضحة عن مشاكل الحياة الإنسانية وما يتصل بحياة المجتمعات وعلاقة الأفراد والجماعات. وكلها تنبثق من تكريم الإنسان وإشاعة فضيلة التراحم بين الناس، أي ما تقوم عليه ركائز حقوق الإنسان بمفهومها المعاصر وإن لم

تبلورها الأناجيل كما بلورتها اليوم مواثيق الأمم المتحدة. لكن هذه مع ذلك تبقى مرجعيتُها الأساسية في تلك التعاليم المقدسة، وذلك ما جاء عن المسيح بشأن الوصية العظمى التي جاء ذكرها في إنجيل متّى نقلا عن إنجيل مرقس ولوقا : "سأل أحد الفرِّيسيين - وهو من علماء الشريعة- عيسى ليحرجه قائلا : "يامعلم ما هي أعظم وصية في الشريعة ؟" فأجابه يسوع : "أَحِبَّ الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل عقلك. هذه هي الوصية الأولى. والوصية الثانية : "أَحِبَّ قريبك مثلما تحب نفسك". وأضاف : "على هاتين الوصيتين تقوم الشريعة وتعاليم الأنبياء". وبذلك ركز في موعظته على أن الالتزام بالعبادة لا يكفي ما لم يقترن بحب الإنسان والتعاطف معه. كما أن توجهه بالنقد والتوبيخ لعلماء الشريعة المتزمتين والمرائين الذين يقولون ما لا يفعلون مساهمةٌ منه في تحرير الإنسان من قيود التعصب والغلو وأغلال التجهيل، وإشاعة الوضوح والشفافية في السلوك والتصرف والتعامل.

وقد حث عيسى هذا النوع من علماء الدين على النزول من عروشهم أو بروجهم والالتزام بالتواضع قائلا لهم : "لا تسمحوا أن يدعوكم أحد يا سيد، بل ليكن أكبركم خادما لكم. فمن يرفعْ نفسه ينخفضْ، ومن يخفضْ نفسه يرتفعْ (إنجيل مرقس ولوقا).

في القرن المنصرم عملت الكنيسة بجميع طوائفها كاثوليكية وبروتستناتية وأرتودوكسية شرقية على إغناء ثقافة حقوق الإنسان بما صدر عن قياداتها الدينية من تنظير لهذه الحقوق، وما بذلته من جهد للبحث لها عن مرجعية دينية في تعاليم المسيح والكتب المقدسة، ولا سيما مساهمة البابا إسحاق يوحنا الثاني الذي نختم حديثنا عن المسيحية بما قاله في موعظته المعنونة "مخلِّص الإنسان" وهو يتحدث عما يهدد إنسان اليوم من أخطار مبعثها ما يلاحظه الجميع من كون عمل إنسان اليوم يعود عليه

أحيانا بمصائب ومضار تصل به إلى حد تخريب الذات. ويقول : "إن نشاط الإنسان اليوم يهدد محيطه الطبيعي لأننا نسير في خط تنمية التقنيات التي لا نتحكم فيها. ونفتقد التنمية النسبية التي يجب أن تسود حياتنا الخلقية. وعلينا أن نتساءل هل حقيقة إن هذا التقدم الذي يصنعه الإنسان ويدافع عنه بكل قواه يجعل الحياة البشرية على الأرض أكثر إنسانية بجميع المقاييس ؟" ويجيب : "ليس هذا عاما بكل في أسف في جميع مظاهر الحياة" ثم يقول : "إن على المسيحيين أن يضعوا هذا السؤال على أنفسهم لأن يسوع المسيح في جميع تعاليمه حسَّس العالم بمشكلة الإنسان ودعا الجميع إلى التحسس بكل ما يضر أو يمس بقيمة الإنسان وحث على تجنبه والابتعاد عنه وأكد على حرمة قيمة الإنسان وعظَّمها ورفع مكانتها. ومن منطلق إيمان المسيحيين بدعوة المسيح يلزم عليهم أن يسائلوا أنفسهم وغيرهم عن مشكلة التنمية، وعن مستقبل الملايير من البشر الذين يوجدون اليوم في وضع سيئ. وإن الكنيسة لتعتبر نفسها مسؤولة عن العناية بالإنسان، مسؤولة عن إنسانيته ومستقبله على الأرض، مسؤولة عن تنميته وتطوره وعن حقه في الحياة. وهذه المسؤولية ألقتها عليها تعاليم المسيح المسطرة في الكتب المقدسة التي تشهد بذلك" انتهى كلام البابا.

-ج- <u>دين الإسلام</u>

من سلطة الأرض وأخضعه فقط لسلطة السماء واتخذ له شعار الله أكبر. فالله ليس له أب ولا ولد "لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد". هو غير مشخص لا في ابن ولا في صنم منحوت أو صليب مصنوع، أوكهنوت بشري يحكم فوق الأرض باسم الله. والناس جميعا متساوون. فهم عباد الله أو عبيده. وهذا التوحيد الكامل واللاتشخيص هما اللبنتان الأوليان في صرح تكريم الله للإنسان ورفع قيمته. إذ ارتقى به عن عبادة نظيره أو ما صنعت يداه أو ما

تشخصه الأبصار في عالم الشهادة. "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير"

وبنى الإسلام هذه القيمة على قاعدة تكريم الله للإنسان بنوعيه الذكر والأنثى كجنس عالمي في المطلق، فلا أحد ولا شئ يعلو فوق الأرض الجنسَ البشري عامة ويفضُله. وجاءت هذه الوحدة الإنسانية العالمية في آية : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" فالجنس البشري وحدة متنوعة تفرقت فصائلها لكن توحدت في الإنسانية لتتعارف وتستفيد كل فصيلة من عطاء أختها الأخرى.

أما تكريم جنس الإنسان في المطلق فقد جاء في آية : "ولقد كرمنا بني آدم"،الآية التي ذكرناها فيما سبق وبمقتضاها جميع بني آدم مكرَّمون من الله من آمن منهم به ومن لم يؤمن به، من أحسن منهم ومن أساء، لكنهم يتفاضلون ويتعامل الله معهم على مقاييس التقوى وطاعته والتحلي بالفضيلة. والله في عطائه المتواصل لإسعاد البشرية لا يحرم من هذا العطاء المادي لا كافرا ولا ملحدا ولا مذنبا. "كلا نُمِدّ، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا". وهذا مدخل إلى حق المساواة الذي جاء به الإسلام وأغنى مضامينه.

وللإسلام تجاه حقوق الإنسان تنظير خاص، فهو يعتبرها حقوقا للبشرية وحقوق الله أيضا. إن تخويلها لعباده كافة وبدون تمييز بينهم ولا تفريق ممارسة من الله لحقوقه. وممارستها منهم ممارسة لواجب مصدره الحق الإلهي. واحترامها وصونها وعدم المس بها واجب على الإنسان. والإخلال بها إخلال بالحق الإلهي، إذ الله هو مالك هذه الحقوق وواهبها للبشر طبقا لمبدأ تكريمه للبشر ولتخويله الإنسان حق استخلافه والنيابة عنه في الأرض.

وإذا كان وصف الغرب لهذه الحقوق بالطبيعية يترتب عليه ـ تشريعا وممارسة ـ بقاء هذه الحقوق مصونة فإن وصفها في الإسلام بالإلهية وإطلاق اسم حقوق الله عليها يعطيانها ضمانة أقوى وأرسخ، إذ ما يعطيه البشر لنفسه بإرادته قابل للتغيير بنفس الإرادة. أما ما يمنحه الله بإرادته للبشر فله صبغة الدوام وهو من الثوابت التي لا يمسها التغيير. وهذا ما يشكل الضمانة الكبرى لاستمرارية تمتع الإنسان بهذه الحقوق. أما حقوق الإنسان كما هو متعارَف عليها اليوم في المجتمع الدولي فما تزال تفتقد الضمانات القانونية لحمايتها من المس بها إذا استثنينا بعض الآليات التي أخذ المجتمع الدولي يستحدثها لمعاقبة من يُخِلُّون بها كمحاكمة مجرمي الحرب ومرتكبي فظائع ضد الإنسانية.

ولقد بلغ التنظير الإسلامي لربط حقوق الله وحقوق الإنسان برباط واحد إلى حد التحام الحقين وتشابكهما مما يصعب معه إقامة حدود فاصلة بينهما. إن كفالة حق الله لضمان هذه الحقوق لا تنفصل عن كفالة حق عباده بممارستها.

كفل الإسلام حقوق الإنسان منذ تصوره جنينا بجسد وروح في بطن أمه. وقد منع الإخلال بحقوقه التي يصبح مستمدا لها منذ التكوين. وتبتدئ بحقه في الحياة وهو جنين فإجهاضه حرام. وهو من باب قتل النفس التي حرم الله قتلها. وأعطى الجنين حق العناية به والمحافظة عليه، ووضع عقوبات على أمه إذا أخلت بحسن تعهده وتربيته. وإلى أن تضع المرأة حملها لا تُقسَم تركة أب الجنين إلا بعد وضعه من أمه ليأخذ نصيبه من تركة أبيه. ثم أعطاه منذ الولادة حق إرضاعه وعلاجه والنفقة عليه من والديه

إلى أن يبلغ، وأوجب على والديه في مختلف مراحل العمر تربيته وتعليمه وتدريبه على الشعائر الدينية كأداء الصلاة، لكن لا يصح من والديه إكراهه على الصوم والحج قبل أن يكتمل نموه. وتظل حقوق الإنسان تلازم حياة الإنسان في جميع مراحل عمره. فمن حقوقه على المجتمع كفالته اجتماعيا عند العجز والمرض والشيخوخة. وقد حرم الإسلام قتل النفس دون تحديد لذلك لا بقيد الدين ولا بقيد الجنس أو العرق، ولم يفرق في ذلك بين جنسي الذكر والأنثى، بل ندد القرآن بما كان يقوم به بعض العرب قبل الإسلام من وأد البنات خوفا من الفقر والعار. وقال إن هذا الجرم الفظيع سيكون أول ما يحاسب الله عليه مرتكبيه يوم القيامة : "وإذا الموؤودة سُئلت بأي ذنب قُتِلت" (التكوير 81 الآية 8).

ومنع الإسلام الانتحار احتراما لحق الإنسان في الحياة وندد به. وأطلق على المنتحِر وصف المدبِر أي الذي خسر دينه ودنياه. وحرم الصلاة على جنازته ودفنه في مقابر المسلمين. وصنفه بعض علماء الدين الإسلامي في المشركين لأنه أشرك بالله عندما تولى قبض روحه. وهذا شأن خاص بالله نافخِ الأرواح وقابضِها في أجلها المسمى المقدر لها.

ويموت الإنسان ولا تموت حقوقه، فالإسلام ضمن الحقوق للإنسان طيلة الحياة وحتى بعد الموت بحقه في الكفن الطاهر وغسله وتشييع جنازته والصلاة عليه ودفنه واحترام قبره. وحبَّسه عليه فلا يجوز دفن ميت آخر عليه، ومنع الكشف عليه بعد الدفن والتصرف في أعضائه وجسده.
وضمن الإسلام حق الحريات بجميع أنواعها ومن بينها حرية العقيدة، "فلا إكراه في الدين" (سورة البقرة 2 الآية 256). وأمر تبعا لذلك أن يبقى كل من يوجد في ديار الإسلام على دينه إن شاء : "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر". (سورة الكهف 18 الآية 29). وطلب من رسوله محمد أن يقول

لمخالفيه في الدين : "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين" (سورة الكافرون 109 آيات السورة الست).

والإسلام يعترف بالاخر : يعترف بالديانات السماوية كلها فهو كما قال القرآن على لسان المسلمين : "لا نفرق بين أحد من رسله". وقد تعايش الإسلام مع مختلف الديانات في المجتمع الإسلامي وغيرهم من اليهود والمشركين وضمن لهم حقوقهم الدينية والسياسية والاجتماعية في الدستور الذي أعلنه الرسول عندما استقر بالمدينة وسمي بالصحيفة وهو أول دستور مدون في العالم.

وبمقتضى احترام حرية العقيدة لغير المسلمين جاء في وصية الخليفة الأول أبي بكر الصديق إلى الطليعة العسكرية التي أرسلها للفتح الإسلامي قوله : "وستجدون أقواما فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

ومن حقوق الإنسان التي أسسها الإسلام الحقوق المتصلة بالسلام والحرب، فمهما أمكن الوصول إلى السلام تَحرُم الحرب التي لا تُشن في الإسلام إلا لرد عدوان بمثله : "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين" (سورة البقرة 2 الآية 190) "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" (البقرة 2 الآية 194).

وحث الإسلام المسلمين على الأخذ بخيار السلام كلما أظهر العدو جنوحا إليه : "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها" (سورة الأنفال 8 الآية 61). مما يعني أنه ينبغي أن لا يُعتمَد خيار الحرب إلا عند الضرورة القصوى.

وأنصف الإسلام المرأة وكرَّمها وخولها حق المساواة بالرجل في الأحكام. فجميع أحكام الشريعة الواردة في القرآن والسنة موجهة إلى الرجل والمرأة بدون تمييز بينهما. ويقول الرسول في ذلك : "النساء شقائق الرجال في الأحكام". وقد مارست المرأة في الإسلام حقوقها السياسية والاجتماعية، فكانت مفتية في أمر الدين، ومفسرة للقرآن، وراوية للحديث، وضابطة شرطة، ومشرفة على مرفق اقتصادي هو تدبير شؤون السوق وشؤون الحِسْبة، وخطيبة في محافل السلم وجحافل الحرب. وكانت عائشة زوجة النبي في ذلك أصدق مثال. وقد مارست المرأة حق الانتخاب الذي كان يتشكل في بيعة الحاكم بدءا من عقد النبي عليه السلام بيعة النساء إياه بجانب بيعة الرجل. وقد جاء ذلك صريحا في القرآن.

وناهض الإسلام العنصرية وأبطل التمييز العنصري عندما أعلن الرسول أن لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود، وعندما استعمل لوظيفة الأذان -وهي من أهم الوظائف الدينية- عبدا حبشيا أسود هو بلال بن رباح. وكان من بين صحابته المرموقين منحدرون من أعراق مختلفة كان من بينهم صُهَيْب الرومي، وسلمان الفارسي، وعندما أجاز زواج المسلم من نساء أهل الكتاب، وأعطى القدوة من نفسه فتزوج يهودية ونصرانية أصبحتا من أمهات المؤمنين، وعندما جاء في القرآن : "وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم".

يحسن أن نختم بالقول إن للإسلام منظومة متكاملة ذات خصوصيات يمكن إطلاق اسم شريعة حقوق الإنسان عليها. وقد أصبحت تفاصيلها معروفة ومسلما بها. وهي تدخل في نظام

التحرير العالمي الشامل الذي جاء به الإسلام ودخل حيز التطبيق قرونا عدة.

ولا نود أن نطيل بذكر تفاصيل حقوق الإنسان في الإسلام فقد قام بذلك باحثون علميون استخرجوا من القرآن الكريم الآيات التي سنت حقوق الإنسان وصنفوا مضامينها وأوصلوها إلى خمسة وثلاثين. وهي : (1) حقوق الإنسان في عمومينها (2) حقوق ما في الأرحام (3) حق المولود (4) حق اليتيم (5) حق السائل والمحروم (6) حق المساكين (7) حق ابن السبيل (8) حق ذي القربى (9) حق الأسير (10) حق التربية والتعليم (11) حق الوالدين (12) حق الجار القريب والجار البعيد (13) حق بناء الأسرة (14) حقوق المرأة (15) حقوق الزوج على الزوجة وحقوق الزوجة على الزوج (16) حقوق المودة والمعاشرة الزوجية (17) حق المساواة بين الرجل والمرأة (18) حق الشيخ (19) حق الميت (20) حق المريض (21) حق الإنسان في العدل (22) حق كرامة الإنسان (23) حق التبني (24) حق اللجوء (25) حق استخدام الإنسان للطبيعة (26) حق العمل وجزاؤه (27) حق الهجرة والإقامة (28) حق الحياة (29) حق الدية في النفس (30) حقوق الأقليات (31) حق الحرية الدينية (32) حق الإنسان في حكمه بالشورى (33) حق الأموال والممتلكات (34) حق الأمن من الخوف وحق الأمن الغذائي (35) حق قيام الأحزاب والمعارضة.

إننا نعتقد أن التعريف بما جاء عن حقوق الإنسان في الإسلام والديانات السماوية الأخرى والمعتقدات القديمة خير ما يخدم رسالة إشاعة ثقافة حقوق الإنسان التي ما تزال في حاجة إلى المزيد من الجهود الفكرية وترسيخ قيمها في النفوس قصد جعلها منظومة عالمية لا جدال فيها. وما من شك في إن إشاعتها عبر

العالم ستتعزز بتسليط الأضواء على مرجعيتها الدينية. ولم نرد من هذه الدراسة المقتضبة إلا هذا الغرض فقط.